

المنظور السوسبولوجي للرواية العربية

المقدمة: سوسبولوجية الرواية من القضايا الهامة التي تطرح على بساط البحث اليوم فهل ثمة ضرورة حقيقية لربط الأدب عموما وهو إبداع في الأصل بقضايا المجتمع؟ وما هو دور الفن الروائي العربي تحديدا في المجتمع اليوم؟

1- مفهوم الأدب ووظائفه:

للأدب تعاريف كثيرة ومتنوعة من بينها أنه فن القول ، وأنه الإبداع، وأنه "اكتشاف وارتداد لحقائق الحياة"¹. وقد استخدم "مصطلح الأدب Littérature عند الغربيين للإشارة إلى الآداب الجميلة، أو الآداب المكتوبة أو المنطوقة وتشمل القصيدة والأسطورة ورواية أحداث التاريخ، ثم شملت بعد ذلك أنواعا أخرى مثل القصة والرواية والمسرحية والمقال والنقد وغيرها"². وظهرت في إطار الأدب مذاهب أدبية متنوعة كالرومانسية والواقعية والكلاسيكية وغيرها.

2- علاقة الأدب بالفكر الإيديولوجي:

في ظل "ما طرحته العقلية الغربية من فلسفات وإيديولوجيات، كان لها تأثير في أدبنا العربي، وبنوع خاص في شعرائنا وكتابنا، وكذلك في فنون الأدب الحديثة من قصة قصيرة ومروية ومن مسرحية ومقال أدبي، وأصبحت لهذه الفنون قدم راسخة في عالمنا العربي وصار لها كتاب تركوا آثارا جديرة بالدراسة والاهتمام. كما أصبح للمدارس الأدبية والمذاهب النقدية الحديثة دورها الهام في تتبع الحركة الأدبية المعاصرة في عالمنا العربي وتحديد ملامحها واتجاهاتها الفنية"³. ولقد سعى البحث السوسبولوجي والسيكولوجي إلى صبغ الأدب بصيغتها.

أما فيما يتصل بوظيفة الأدب فثمة خلاف واضح بسبب الأجناس الأدبية "كالشعر أو القصة أو الرواية أو المسرحية .. فالخلاف أيضا حول وظيفة الأدب العظيم Great، والأدب الجيد Good، والأدب السوقي Sub-Literary، هذا الأخير يجد من يثني عليه باعتباره نوع من التسلية أو الهروب من أعباء الحياة اليومية في نفس الوقت الذي ينتقده "كنيث بورك"، فعملية الهروب التي قد يحققها الأدب السوقي يمكن أن تساعد القارئ على زيادة سخطه على الواقع الاجتماعي الذي يعيشه"⁴.

ويمتد الخلاف أيضا إذا نظرنا إلى وظيفة الأدب من وجهة النظر الإيديولوجية "فالرأسمالية تنظر إلى الأدب باعتباره ظاهرة اجتماعية ينمو ويتطور بنمو وتطور وتغير المجتمعات، وهو وسيلة أساسية من وسائل الاتصال الاجتماعي. والأدب جزء من البناء الاجتماعي للثقافة في المجتمعات الرأسمالية. وله وظيفة هامة في الحفاظ على

توازن البناء الثقافي للمجتمع هذا فضلا عن وظيفته الأساسية في الترفيه والتسلية ... بينما تنظر الماركسية إلى الأدب باعتباره أداة أساسية من أدوات الضبط الاجتماعي وهو أحد أسلحة الطبقة.

ومن خلاله تتواجه الإيديولوجيات المتعارضة، وتقع المبارزات بين القديم والجديد. وترى الماركسية ضرورة تصوير الأدب للمجتمع القائم على الاستغلال والظلم والكذب تصويرا دقيقا بهدف القضاء عليه، والماركسية كأيديولوجية، تسعى إلى زيادة وعي أفراد المجتمع بما فيهم الأدباء وتدفعهم للاتصاق بالواقع الذي يستقون منه أعمالهم⁵.

ولا يمكن إنكار الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية الفاعلة في الكاتب بوصفه فردا في بيئته ومجتمعه⁶ "فالأدب نتاج لواقع معين، وانعكاس صادق لقضايا مجتمع محدد يتفاعل بعمق مع هموم وطموحات الجماهير، فيتأثر ويساهم في التأثير فالأديب وهو ابن بيئته أقدر الناس على احتضان الواقع بأفراحه وأتراحه/ وعلى الالتحاق الدائم بالجماهير وهي تكدر وتكد في سعيها الدؤوب لبناء الغد المشرق"⁷. رغم أن بعض الأدباء يحددون عن حياتنا في أدبهم مولعين بتقليد الغرب في كل الأمور وهو رأي عبد المنعم خفاجي يقول: "أدبنا اليوم لا يمثل حياتنا، ولا هو يمثل ثقافة أو حضارة خاصة بنا، ولا يمثل في قليل ولا في كثير شيئا من خصائصنا الأصيلة، إلا في القليل الأقل منه ... هذا القليل الذي ينصرف شبابنا والمتأدبون منا عن القراءة له بدعوى أنه أدب قديم رجعي لا أدب حديث متجدد"⁸

3- النص الروائي:

الرواية هذا الجنس الأدبي الحديث، يشاع عنه أنه وسيلة للترقية فحسب، غير أنه أبعد مغزى من هذه السطحية، فالرواية ليست تركيبة فنية مردة أو ترفا ذهنيا، بل تغيير اجتماعي وانفجار معرفي حقيقي ولقد أصبح فن الرواية وانتشاره من أبرز الظواهر الأدبية التي بدت واضحة أخيرا، حيث تختفي بهذا الفن جوائز عالمية مما غدى ظاهرة لها دلالتها ليس في الأدب العربي فحسب بل في الأدب العالمي فالرواية لا تسود كجليس أدبي للمبدعين فحسب، بل أصبحت ناد يجتذب أصحاب الفكر والسياسية، لتتحول إلى وعاء أدبي جذاب ومراوغ يقول من خلاله المثقف ما يريد أن يصل إليه دونما اصطدام.

لقد أصبحت الرواية أقدر أشكال الكتابة على التعبير عن تناقضات حياتنا المعاصرة وهي تعتمد على ذلك الجدل القائم بين شخصياتها من خلال الحوار والوصف والسرد، وتبرز من خلال ذلك قدرتها على تكوين شبكة متداخلة الخطوط مليئة بالدلالات والمعاني والقيم⁹ وهذا ما أكدته، محمد مندور حين أشار إلى أهمية الأدب عموما من حيث هو وظيفة اجتماعية¹⁰، فالعلاقة قائمة بين الفن والحياة فالرواي "يحيل على الأعلام والوقائع الكبرى في العصور الذهنية ويتجه إلى النقد والإصلاح الاجتماعي"¹¹.

إن النص الروائي اليوم مهموم بأدواء العصر، متدافع إلى النقد الاجتماعي فضلا عن جماليته الفنية "بل إن انفتاح النص الروائي المدهش على الأجناس الأدبية والفنون الأخرى ليس إلا توسيعا مقصودا لتناص البنية الروائية

العربية عند الاستجابة لضائقة أدبية حادثة هي وليدة العصر الذي تنتمي إليه الذات الكاتبة والهموم التي تسكنها"¹².

4- الرواية الاجتماعية:

تختلف أنواع الروايات فمنها الرواية التحليلية التي تعنى بالتحليل النفسي لبطل من خلال بيئته، مثل رواية "الأطلال" لمحمود تيمور، وثمة الرواية الشخصية والتي تركز على تجربة عاناها المؤلف، ليغدو هو بطل الرواية يمتزج فيها الواقع بشيء من الخيال حول جزء من حياة الراوي مع شيء من التغيير مثل "الأيام" لطف حسين، والرواية التاريخية تستمد مادتها من التاريخ بهدف معرفة وإحياء التاريخ في قالب مثل رواية "كفاح طيبة" لنجيب محفوظ، بينما الرواية الذهنية تنطلق من إيديولوجية معينة يتبنها الكاتب ويسعى إلى أقناع الآخرين بها¹³، من خلال تصريف الأحداث وإنطاق الشخصيات في الرواية وفق مبادئ وشعارات خاصة بالكاتب الروائي وفق تصوره وبأساليبه الخاصة¹⁴.

أما الرواية الاجتماعية فهي الرواية التي تعنى "بتحليل قضايا اجتماعية واقعية كقضية الصراع الطبقي، أو الثأر، أو الجريمة، وارتباط هذه القضايا بقيم وعادات وتقاليد المجتمع، ومن الأمثلة على هذا النوع من الأعمال الروائية، رواية "دعاء الكروان" لطف حسين، و"الثلاثية" لنجيب محفوظ، و"قنديل أم هاشم" ليحيى حقي وغيرها"¹⁵.

وهكذا يتبين أن الرواية أكثر من وجه، وبهذا الصدد يرى "هنري جيمس" أن الرواية صورة حية للحياة، وأن الحياة لا يمكن أن تظهر على أحسن وجوهاها في العمل الفني، إن لم تتوفر لها الشكل الفني المتكامل، وأن مهمة الفن هي إبراز الحياة في الصورة الفنية في أتم وأجمل صورها"¹⁶.

وفق السوسيولوجية فإن الرواية وقائع وسير، تتضمن تصويروا واقعيا للمجتمع وهذا وفق "مفهوم الماركسي لنظرية الانعكاس. ويعتبر "لوسيان جولدمان L. Goldman أول من قدم فرضيات ذات طابع سوسيولوجي صريح حول الرواية وذلك انطلاقا من آراء "جورج لوكاش G. Luckacs"، و"رينيه جيرار R. Girard"، ومن ثمة فقد عرف الرواية بأنها "قصة بحث عن قيم أصلية بصيغة متدهورة، وفي مجتمع متدهور" وفي الحقيقة أن هذا التعريف قد قصد به "جولدمان" المجتمع الرأسمالي... وذلك على اعتبار أن المجتمع البرجوازي لا تظهر فيه العلاقة المباشرة بين الأفراد والأشياء بمظهرها الخالص، وهذا ما يميز القيم الأصلية في الرواية.

وجدير بالذكر أن تعريف "جولدمان" للرواية من المنظور السوسيولوجي وتحديد لوظائفها لا يخلو من تمييز إيديولوجي واضح فسخطه على المجتمع الرأسمالي امتد إلى سخطه على الرواية التي تعكس أو تنقل ما في الحياة اليومية من ظواهر اجتماعية اقتصادية نقلا مباشرا، ومن قم فقد وصف العمل الروائي بأنه عمل متدهور من حيث الصياغة، ووصف المجتمع البرجوازي بالمجتمع المتدهور"¹⁷.

5- تطور الفكر الاجتماعي في الرواية العربية:

اليوم تجاوزت الرواية مونها مجرد أداة تسلية إلى أداة تصور أبعاد الحياة الاجتماعية، وتعبّر عن ضمير الإنسان وقيمه وآرائه واتجاهاته، مستوعبة أيضا لتاريخ. متنبأة بالمستقبل "فالحافز على تحليل النصوص الصغرى هو البحث في استعارة التاريخ ودلالات الغياب في الرواية العربية، يليه استقراء المكانية الروائية لمقاربة الرؤى السردية الكبرى في تمثيل الوعي الروائي العربي. أما الحافز على تحليل النصوص الكبرى، فهو اتخاذ عينات دالة على اتفاق كل منها والنصوص الصغرى في أداء وعي إشكالي كالحاضر المتعاضد حيناً، وكالماضي المستبد بعديد الرؤى حيناً. وبالاسترجاع والحنين إلى ما كان، والفرار من جحيم اللحظة الآن، وكفيض حالات التطلع إلى مستقبلي ما مختلف حيناً آخر"¹⁸.

وجدير بالذكر أن الرواية اليوم هي بمثابة "أداة سياسية واجتماعية هامة تعبّر عن روح المجتمع ومشكلاته وقضاياها الأساسية .. ولها أدوار عديدة في المجتمع الحديث كدور الكاهن، ودور المشرف السياسي، ودور المعلم، ودور الصحفي .. وفي القرن العشرين شهدت الرواية أوج ازدهارها، وزاد تعمقها في الضمير الإنساني، وارتباطها الشديد بالمجتمع، فالأديب الروائي أصبح اليوم لا يقل أهمية عن عالم الاجتماع في تصوير الواقع الاجتماعي والتنبؤ بالمستقبل"¹⁹.

والرواية العربية الحديثة تطورت على أيدي الأجيال التالية من الروائيين العرب، متخلصة من المضامين الغربية ولمعت أسماء روائيين خلال الثلث الأول من القرن العشرين أمثال محمد حسين هيكل، وتوفيق الحكيم في مصر، وإلياس أو شبكة، وكرم ملح في لبنان، ومحمود السيد في العراق. ليأتي العصر الذهبي للرواية العربية في العقد الرابع من القرن العشرين على أيدي أبناء الجيل الثاني ومن أبرز هؤلاء الروائيين: نجيب محفوظ، وإحسان عبد القدوس، ثم تقدمت الرواية على أيدي الجيل الثالث أمثال يوسف إدريس²⁰. وكانت هذه رواياتهم خاصة رواية نجيب محفوظ شاهداً على تطور المجتمع العربي واستشراف مستقبل أفضل.

الخاتمة:

وهكذا أصبح للرواية العربية هذا الدور الكبير في رصد وضع المجتمع وتجسيد أزماته وتحليل قضاياها الأساسية من خلال شخصياتها الروائية. فالرواية هي أكثر فنون الأدب قدرة على تصوير حركة الإنسان في علاقته بمجتمعه سواء كان هذا التصوير واقعياً مباشراً، أو رمزياً مستتراً. إنها أكثر أشكال الأدب تأثيراً وانتشاراً في المجتمع.

-
- 1 - محمد زكي العشماوي: الرؤية المعاصرة في الأدب والنقد. دار النهضة العربية. ص 107.
 - 2 - محمد كمال غالب: الأدب والمجتمع. دار الوفاء للنشر. سنة 1980 م. ص 13.
 - 3 - المرجع السابق. ص 141.
 - 4 - محمد علي بدوي: علم اجتماع الدب النظرية والمنهج والموضوع. دار المعرفة. الإسكندرية. سنة 2005 م. ص 21.
 - 5 - المرجع نفسه. ص 22.
 - 6 - حلمي مرزوق: تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث في الربع الأول من القرن العشرين. دار النهضة العربية. بيروت. سنة 1983 م. ص 10.
 - 7 - بلقاسم بن عبد الله: دراسات في الأدب والثورة. منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين. دار هومة. سنة 2002 م. ص 162.
 - 8 - محمد عبد المنع خفاجي: دراسات في الأدب العربي الحديث. دار الجيل. بيروت. سنة 1992 م. ص 11.
 - 9 - عبد القادر ليفا: مقال الرواية ومجتمع المعرفة. جريدة الفجر.
 - 10 - إبراهيم عباس: الرواية المغاربية الجدلية التاريخية والواقع. منشورات المؤسسة الوطنية. سنة 2002 م. ص 6.
 - 11 - مصطفى الكيلاني: الرواية والتأويل سردية المعنى في الرواية العربية. دار السفير. عمان. ط 1. سنة 2009 م. ص 22.
 - 12 - المرجع نفسه. ص 7.
 - 13 - أنظر. محمد علي البدوي: علم اجتماع الأدب. ص 22.
 - 14 - أنظر. بلقاسم بن عبد الله: دراسات في الأدب والثورة. ص 8. وياسين الأيوبي: في محراب الكلمة. المكتبة العصرية. ص 233.
 - 15 - محمد علي البدوي: علم اجتماع الأدب. ص 23.
 - 16 - المرجع نفسه. ص 24.
 - 17 - المرجع نفسه. ص 25.
 - 18 - مصطفى الكيلاني: الرواية والتأويل. ص 8.
 - 19 - محمد علي البدوي: علم اجتماع الأدب. ص 272.
 - 20 - أنظر. المرجع نفسه. ص 274.